الدرس التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللَّهمَّ صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمدٍ، وعلى آله وصحابته أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

- كان الحديث قد توقف بنا أيها الإخوة والأخوات، والإخوة الحضور قبل هذا في الاستوديو، عند أواخر، أو نهاية كلام الحافظ ابن كثير عن غزوة بدرٍ، ثم بعد ذلك تلا غزوة بدرٍ بعض الغزوات التي تسمى غزواتٍ صغيرةً، أو غزواتٍ لم يحدث فيها قتالٌ، فأشار الحافظ ابن كثير، ونحن قد نضطر إلى بعض المرور السريع على بعض الغزوات اليسيرة هذه، ومن أراد أن يقرأها في الكتاب، فالحافظ ابن كثير يعلِّق عليها باختصارٍ شديدٍ.
- لكنه ذكر ثلاث غزواتٍ، غزوة بني سليمٍ، وغزوة ذي أمر، وغزوة بحران، كل هذه الغزوات الثلاثة ذهب فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع جملةٍ من أصحابه، وفي جميعها يقول ابن كثير: ذهب أو رجع ولم يلق حربًا، وهذه نستفيد منها فائدةً، وهي: أن الغزوة لا يُشترط أن يكون فيها قتالٌ، وإنما يكون فيها عزمٌ على القتال، فإن وُجد، وإلا فلا ينتفي عنها وصف الغزوة.
- ومن الغزوات التي تلت غزوة بدرٍ، هي غزوة ما تُعرف بغزوة السويق. وفكرتها أو قصتها أن أبا سفيان لما رجع إلى مكة بعد غزوة بدرٍ أوقع الله -عزَّ وجلَّ- في أصحابه ببدرٍ بأسه -سبحانه وتعالى-، كما تلاحظون في الشاشة الآن، لمن لم يكن معه الكتاب، فنذر أبو سفيان أن لا يمس رأسه بماءٍ، وهذه طريقةٌ من طرق النذور عند الجاهلية، حتى يغزو النبي -صلى الله عليه وسلم-، فخرج في مائتي راكبٍ، فنزل طرف العريضة، وبات ليلةً واحدةً في بني النضير عند سلَّام بن مشكم.
- لاحظ الآن التحالفات، المشركين مع اليهود، ضد المسلمين، فهذه سُنَّةٌ ماضيةٌ، وسيأتينا -إن شاء الله- في أُحد التحالفات بين المنافقين وبين اليهود، وبين المشركين، كلهم ضد الإسلام والمسلمين، فهذه قضايا واضحةٌ جدًّا التاريخ يسطِّرها بوضوحٍ.
- يقول: سقاه، وبطن له من خبر الناس، يعني أعطاه بعض الأسرار، ثم أصبح في أصحابه، وأمر فقطَّع أسوارًا من النخل، والمقصود بالأسوار هي النخل الصغار، أو المجتمعة، وقتل رجلًا من الأنصار، وحليفًا له، ثم رجع أبو سفيان، ولم يصنع شيئًا، لكن حرص النبي -عليه الصلاة والسلام- على اللحاق به، فخرج في طلبه، والمسلمون، فبلغ قرقرة الكدر، وفاته أبو سفيان والمشركون، نظرًا لأنهم كانوا يحملون معهم السويق، وخشية من التعطل في الطريق، شقوا هذه الأكياس لينتثر السويق في الأرض، ولهذا سميت غزوة السويق، نظرًا

لسقوط السويق في الأرض؛ لأنهم أرادوا أن يتخففوا بأزوادهم، وكانت هذه في السنة الثانية من الهجرة، لكن في شهر ذي الحجة، ورجع النبي -عليه الصلاة والسلام- وكان قد استخلف عليها أبا لبابة.



- نلاحظ في الخريطة الآن يُظهرها المخرج مشكورًا، تحديد موقع القرقرة هذه التي مرَّت معنا، قرقرة الكدر، تلاحظون الآن في الخريطة المؤشر عند اللون الوردي هذا، هذا موقع القرقرة، التي ذكرها الحافظ ابن كثير قبل قليلٍ، حينما خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- يطلبه والمسلمون، اتجه أبو سفيان، يعني هذه الجهة، وهو يريد مكة، لكن طبيعة المراوغة في الحرب تقتضي نوعًا من الميلان، إما ذات اليمين، وإما ذات اليسار، لا تكون على الطرق المسلوكة والمعروفة، وإلا سهل اقتناصه والظفر به.
- لما بلغ هذه الموضع خففوا أزوادهم، وشقوها كما قد تقدم، هذه موقعة أو غزوة السويق، هي تقريبًا في الجنوب الشرقي من المدينة.
- ثم بعد ذلك يقول ابن كثير -رحمه الله-: ثم أقام النبي -صلى الله عليه وسلم- بقية ذي الحجة، ذكر قصة ذي أمر، أو غزوة بحران، ثم انتقل إلى غزوةٍ أكبر، وهي غزوةٌ مشهورةٌ، وهي غزوة بني قينقاع.
- وسببها: أن بني قينقاع هؤلاء، وهم أحد طوائف اليهود الثلاثة، بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، هؤلاء كانوا تجارًا، وكان عددهم سبعمائة مقاتلًا، فخرج النبي -عليه الصلاة والسلام- لحصارهم واستخلف على المدينة بشير بن عبد المنذر، وهذه سنةٌ نبويةٌ، في الاستخلاف سار عليها الخلفاء من بعده، إذا خرج الحاكم أو الأمير أو الوالي على البلد من دولته ومن مكانه فإنه ينيب عنه شخصًا يقوم بشئون الدولة كما هو معلومٌ، وهذا عرفٌ سائدٌ، وهو ما يعرف بعد بولي العهد، أو نائب الرئيس، أو نحو ذلك، ليقوم بمهام الدولة، حتى لو حصل أي إشكالاتٍ، وإذا هم يجدون من يقوم بحلها.
- يقول: فحاصرهم النبي -عليه الصلاة والسلام- خمس عشرة ليلةً، فنزلوا على حكمه -عليه الصلاة والسلام-.
- انظر الآن التحالف النفاقي مع اليهودي، يقول: فشفع فيهم عبد الله بن أبي بن سلول؛ لأنهم كانوا حلفاء للخزرج في الجاهلية، وهو سيد الخزرج، فشفَّعه النبي -صلى الله عليه وسلم- بعدما ألح على النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقد كانوا في طرف المدينة.
- من الأحداث المهمة التي وقعت في هذه الفترة بعد غزوة بدرٍ، وبعد شهر ذي الحجة أيضًا: قصة مقتل كعب بن الأشرف، وهي ثابتةٌ في الصحيحين، عرض لها ابن كثير باختصارٍ، ونحن كذلك نمر عليها باختصارٍ.
- كعب بن الأشرف كان أحد سادات اليهود، وهو رجلٌ من طيءٍ، يعني أصوله من جهة حائل، لكنه يهودي الديانة، فكان يؤذي النبي -عليه الصلاة والسلام-، ويؤذي الله -عزَّ وجلَّ-، ويؤذي نساء المؤمنات بالتشبيب بهن، التغزل والكلام بهن بطريقة فجَّةٍ وفاجرةٍ.

- فقال النبي -عليه الصلاة والسلام- مستنفرًا الصحابة: **«من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله»** ، فنفر جماعةٌ من الصحابة، منهم: محمد بن مسلمة، كما ذكرهم ابن كثير، وعبَّاد بن وقش، وسلكان بن مشكم، وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة، وهذه كان لها دورٌ في عملية المكر والخديعة، وهو أن يأتي شخصٌ، لا يتوقع أن يؤتى من جهته، وكان معهم أيضًا الحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عبس بن جبر -رضي الله عنهم-.
- استأذنوا النبي -عليه الصلاة والسلام- من باب الخديعة أن يتكلموا في الرسول عند كعب بن الأشرف، فقالوا له: هذا رجلٌ جاء وفرّق جماعتنا، وسفَّه آلهتنا، وهذا الكلام كُفرٌ، في الأصل كُفرٌ لا يجوز، لكن لما أذن النبي -عليه الصلاة والسلام- فيه، صار جائزًا، بل قد يكون مشروعًا، كما أن السجود لغير الله -عزَّ وجلَّ- لا يجوز، إلا إذا أذن الله -عزَّ وجلَّ- فيه، كما سجد الملائكة طاعةً لله لآدم، فلما أعرض إبليس عن هذا صار كافرًا.
- المهم، أنهم استدرجوه من الأُطم، من الحصن، وتعرفون اليهود لهم حصونٌ، يعني كما قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: 14]، وكعب بن الأشرف حصنه مازالت آثاره موجودةً في المدينة إلى الآن، وقد زرته أنا، وربما زاره بعضكم، وهو موجودٌ، لو كتب أحدكم "حصن كعب بن الأشرف" في جوجل، سيرى آثاره موجودةً، حصونٌ غليظةٌ -سبحان الله- يعني متينةٌ جدًّا.



حصن كعب بن الأشرف

- الغريب ما هو؟ قالت زوجته في تلك الليلة: إني أشم رائحة الدم. المهم أنهم في قصةٍ مطولةٍ يراجعها من شاء في الصحيحين، وطوّل فيها الإمام مسلم -رحمه الله-، وحصل قتله ولله الحمد، ثم لما أصبح الصباح، نعى الناعي أنعي سيد بني قريظة كعب بن الأشرف.
- ثم الحمد لله، يعني كان ممن أصيب أبو عبس -رضي الله عنه-، وتقدَّم إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، فرقاه، فرجعت قدمه كأن لم يصبها شيءٌ، ببركة دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم-.
- ثم بعد ذلك يأتي الحديث المفصَّل عن غزوة أحد، وهي التي الحقيقة نحتاج أن نتوقف معها قليلًا.
- غزوة أحد، كما هو معلومٌ، جاءت بعد موقعة بدرٍ بسنةٍ وشهرٍ تقريبًا، ثلاثة عشر شهرًا.

- المشركون صُدموا، ومازالوا يعيشون مرارة الهزيمة التي أصابتهم يوم بدرٍ، فأقسموا أن ينتقموا لساداتهم وأشرافهم. معلومٌ أن ساداتهم وأشرافهم عامتهم قد قُتلوا، وكثيرٌ منهم أُلقي في القليب، كما تقدَّم معنا في الدرس الماضي، وجاءت غزوة السويق، التي أشرنا إليها قبل قليلٍ، كنوعٍ من المناوشة والتحرك للانتقام للمشركين، لكن لم يحصل لأبي سفيان ومن معه شيءٌ من ذلك، وهنا عجائب جدًّا، أبو سفيان حاول وحاول وحاول، أبى الله -عزَّ وجلَّ- إلا أن تدور الأيام، ليُسلم هذا الرجل، ويكون من أصحاب النبي -عليه الصلاة والسلام-.



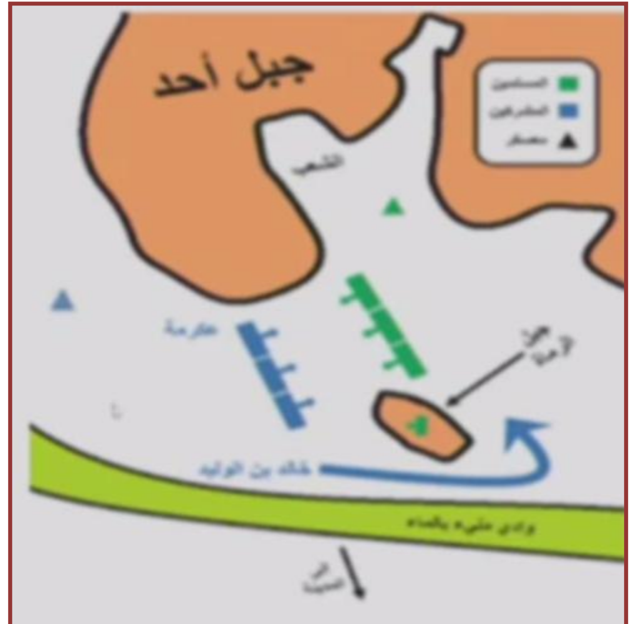
- المهم أن المشركين جاءوا واقتربوا من جبل يُقال له عينين، وهذا الجبل هو الذي كان عليه الرُّماة في غزوة أحد، وهذه صورة له، لعل المخرج يتكرم بإظهار الصورة، تلاحظون المؤشر الآن، هذا هو الجبل، لاحظوا، الآن الذي يزور الموقع سيجد هناك مسجدًا، ويجد مقبرة الشهداء هذه، الجبل هذا هو، هذا الذي يدور عليه المؤشر، هذا جبل عينين، اقترب منه المشركون، من أجل الانتقام كما قلنا.
- النبي -عليه الصلاة والسلام- لما عرف بقدوم المشركين، استشار الصحابة كعادته، وفي ثنايا سياق غزوة أحد في سورة آل عمران، قال الله -عزَّ وجلَّ- فيها: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، لأن الأمر هنا يتعلق بالأمة كلها، ومن شأن الحاكم، ومن شأن المسئول، ومن شأن الأب في البيت أن يُفعِّل مبدأ الشورى، وإذا كان النبي -عليه الصلاة والسلام- استشار في هذه القضايا، فهذا ليس نقصًا فيه -عليه الصلاة والسلام-، الله قد يسدد بالوحي، ويقول: امض لكذا، ويمضي، لكن أراد الله أن تكون سنةً له وللخلفاء والقادة الذين يأتون من بعده، أن لا يستبد بالأمر، بل يستشير، والعاقل من الناس هو من يضيف إلى عقله عقولًا أخرى، ولا يستبد ويقول: أنا عالمٌ، أنا فاهمٌ، أنا سياسيٌّ محنَّكٌ، أنا اقتصاديٌّ خبيرٌ، أنا عالم اجتماعٍ، أنا طبيبٌ، ما أحتاج أستشير، يستشير الإنسان ثم يتوكل على الله -سبحانه وتعالى-، وهذا أحد الأسباب التي يُستجلب بها الخير، ويُستدفع بها الشر.
- وفيه فائدةٌ أخرى، قضية الشورى، وهي: أن تتحمل الأُمَّة تبعة القرار، تصوروا لو أن النبي -عليه الصلاة والسلام- قرر رأيًّا ثم حصلت الهزيمة التي حصلت، ماذا سيُقال؟ قد يقول أناسٌ: هذا رأي الرسول، لو أطاعنا لحصل كذا وكذا مثلًا، كما قال المنافقون: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: 168]، يعني لو بقوا في المدينة ما خرجوا، ما حصل ما حصل، لكن هذا المقصود منه: أن الإنسان العاقل يستشير في كبير الأمور وما هو أقل منها. يستشير في الأمر بالذات الذي يتعلق به شأنٌ في الأُمَّة، وأعرف بعض أهل العلم أحيانًا إذا أراد أن يكتب مقالًا، أو يكتب كما يقال تغريدةً، أو منشورًا على الفيس بوك، له صلةٌ بالأُمَّة، وتخاطَب به الأُمَّة يعرضه على

أربعةٍ، أو ثلاثةٍ، أو خمسةٍ، إلى سبعة أشخاصٍ أحيانًا، من أجل أن يشيروا إليه، حتى لا يفوت عليه شيءٌ، أو يقول كلمة غير مناسبةٍ.

- فكان النبي -عليه الصلاة والسلام- استشار الصحابة، الذين تخلَّف منهم في غزوة بدرٍ ألحوا بالخروج، طلبًا للشهادة، ومنازلة المشركين، عبد الله بن أبي بن سلول، وجماعةٌ من الصحابة الصادقين، ليسوا منافقين، كان رأيهم أن يبقوا في المدينة، وأن لا يخرجوا إلى خارجها، نظرًا لأن المدينة يمكن الإحاطة بها من قريبٍ، ودفع العدو، فلما كانت الغلبة، وأكثرهم من الشباب، الذين فاتهم شرف بدرٍ، رأى النبي -صلى الله عليه وسلم- الكثرة، يريدون ذلك، خرج النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد لبس لأمته -صلى الله عليه وسلم-، وظاهر بين درعين، كما سيأتي، يعني كأن الصحابة الذين أشاروا عليه بالخروج، كأنهم قالوا: لعل الرسول يريد البقاء، إذن يا رسول الله ادخل، لا نخرج، قال: **«ما كان لنبيٍّ إذا لبس لأمته أن يضعها، حتى يقضي الله بينه وبين عدوه».**
- وأوتي -عليه الصلاة والسلام- برجلٍ من الأنصار، فصلى عليه، وكان هذا الكلام كله يوم الجمعة، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، لاحظوا الاستخلاف، حتى لا تبقى المدينة شاغرةً من أحدٍ يقوم بالأمر، وانظروا أيها الإخوة والأخوات، ليس هناك من الأُمَّة أحدٌ يمكن أن تتعطل طاقته، ولا يُنتفع به، ابن أم مكتوم أعمى، لكنه كان رجلًا صالحًا وحكيمًا، ولولا أن النبي -عليه الصلاة والسلام- عرف فيه القدرة على إدارة البلد، والدولة المدينة وما حولها باقتدارٍ، ما كلَّفه بذلك، فلا يقلق إنسانٌ أن فاته شيء من هذه الجوارح، البصر أو السمع، بل يستطيع أن يخدم الإسلام، ولو فقد شيئًا من بعض الجوارح.
- إذن، ما الذي يُخشى على الإنسان؟ أن يفقد هَمَّ نُصرة هذا الدين، فالعبرة ليست بأن تفقد قدمًا، أو تفقد يدًا، أو سمعًا أو بصرًا، كلَّا، بل عرفنا في الأُمَّة المعاصرة اليوم، من كان مشلول الأربع أطراف تمامًا، لا يتحرك إلا بعربيةٍ، ومع ذلك هو قائدٌ من قواد هذه الأمة، الذين دوَّخوا أعداءها، ونعرف من أئمتنا المعاصرين، من أهل العلم، من كان رأسًا في العلم، والفتوى، والإمامة في الدين، وهو كفيف البصر، إذن ليس هناك عذرٌ للإنسان، المهم أن لا يموت قلبك، أن لا يموت عقلك في التفكير لخدمة هذا الدين، كذلك الأخوات في بيوتهن، ليس هناك أحدٌ معذورٌ في نصرة هذا الدين، إذا وُجد الهم، ترجم الإنسان هذا في نصرة الدين.
- قال -رحمه الله-: وخرج إلى أحد في ألف من الصحابة، فلما كان ببعض الطريق، انخذل عبد الله، لاحظوا خذلان المنافقين للأُمَّة أحوج ما تكون إلى النصرة.
- انخذل عبد الله بن أُبيّ، بنحو ثلاثمائةٍ، تصور أن تخرج بجيشٍ، فيعود ثلثه، قاسمةٌ للظهر، ولكن هذا صحيحٌ أنه يؤثر، لكن هذا درسٌ عظيمٌ في خذلان المنافقين للأُمَّة، في أحوج ما تكون للنصرة، وحرصهم على طعن الأُمَّة في ظهورها، إذا وجدتْ هذه الأزمات، وانظروا كم يستغل المنافقون كثيرٌ من الأزمات التي تمر بها الأُمَّة، فيخذلونها، أو يستعينون بعدوٍّ خارجيٍّ، من أجل إحداث البلبلة والخلخلة في صفوف المسلمين.

- عبد الله بن عمرو بن حرام، والد جابر -رضي الله عنه-، رجع يوّبِخهم، ويقول: ارجعوا، و و، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فلما أبوا رجع عنهم، وسمَّهم -رضي الله عنه وأرضاه-.
- يقول: استقل النبي -عليه الصلاة والسلام- بمن بقي معه، حتى نزل شِعب أُحد، في عدوة الوادي إلى الجبل، يعني جلس في العدوة القريبة من الجبل، وليست العدوة التي هي المفتوحة، جهة الجنوب إلى مكة، بل اتخذ الجبل حصنًا خلفيًّا يحميه، وجعل الجهة المفتوحة التي يبقى فيها الكفار، وجعل الرماة على الجبل؛ ليكونوا أيضًا حصنًا لو انقلبت موازين المعركة، وإذا السند يكون من جهة أعلى وأقوى؛ لأن رمي النبال إذا جاء من أعلى، ليس كما لو جاء من أسفل، والقدرة على تسديد الهدف أقوى.
- انظروا ماذا فعل النبي -عليه الصلاة والسلام-، لما أصبح يوم السبت تعبَّأ للقتال، ووضع خمسين فارسًا على الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير الأوسي من الأوس -رضي الله عنه-، وقال لهم، انظروا العبارة، أمرهم أن لا يغيّروا مكانهم، وأن يحفظوا ظهور المسلمين، أن يؤتوا من قِبلهم، وقال لهم، كما في السير، قال: **«لا تبرحوا مكانكم ولو رأيتم الطير تتخطَّفنا»**، يعني لا أحد ينزل إلى أن نأتي.
- انظروا إلى الصورة أيها الإخوة والأخوات الآن، توضح موقع المسلمين وموقع المشركين، المسلمون يمثِّلون اللون الأبيض، هنا، والمشركون يمثِّلون اللون الأحمر، لاحظوا الآن، المسلمون هنا وجبل الرماة هنا، والمدينة في هذه الجهة، إذن، المسلمون الآن تحصَّنوا بالجبال، كحاجزٍ طبيعيٍّ قويٍّ جدًّا، وكانوا قريبين من حرماتهم؛ حتى لا يبغتهم المشركون، ويهجموا على المدينة.
- بقيت هذه هي الجهة المفتوحة، وهي التي أتى منها المشركون، وهم أصحاب اللون الأحمر.





هنا خريطةٌ أخرى قد تكون أوضح قليلًا، الآن المسلمون باللون الأخضر، والمشركون باللون الأزرق، جبل أحد الآن تلاحظون أنه في خلف المسلمين، هنا جبل الرماة، الذي هو القطعة البنية هذه، أو البرتقالية المستقلة، هنا قال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: **«لا تبرحوا مكانكم، ولو رأيتم الطير تتخطَّفنا»**، وهذا وادٍ من الأودية اللون الأخضر، وادي من الأودية. ما الذي حصل؟

في أول المعركة انتصر المسلمون، كما سيذكر ابن كثير

بعد قليلٍ. نقرأ ماذا يقول -رحمه الله-.



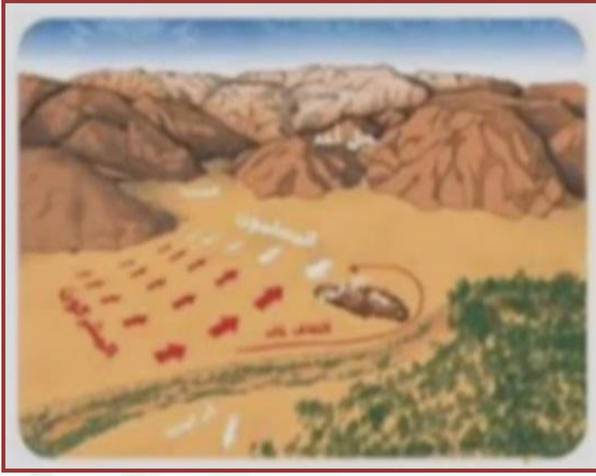
- يقول: "وظاهر النبي -صلى الله عليه وسلم- يومئذٍ بين درعين". الدرع أريكم صورته الآن، انتبهوا له، هذه صورة الدرع، عبارةٌ عن ثوبٍ حديديٍّ، لبس النبي -صلى الله عليه وسلم- ثوبين من الحديد -إن صحت العبارة- وهو الذي يسمى الدروع، هذا هو، أما الذي فوق الرأس هذه ماذا تسمى؟ خوذةً، نحن نتحدث عن الدرع، وهو من الكتف فما دون، هذا يسمى درعًا.
- ظاهر النبي -صلى الله عليه وسلم- بين درعين، وفي هذا فعلُ الأسباب، ما يأتي واحدٌ ويقول: توكلت على الله، سأقاتل، ولا أتقي، ولا أفعل، لا، وبهذا نفهم ضلال بعض أهل البدع، الذين يعطِّلون الأسباب، ويقولون: نحن متوكلون على الله، التوكل على الله فيه جانبان: هو التعلق بالله -عزَّ وجلَّ-، مع فعل الأسباب المشروعة، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: 159].
- إذن، ظاهر النبي -صلى الله عليه وسلم- بين درعين، أعطى اللواء، وهذا أحد كما يُقال الأعراف العسكرية، أعطاه مصعب بن عمير وهو من بني عبد الدار، وجعل على المجنبة اليمنى، الزبير بن العوام، والمجنبة اليسرى، المنذر بن عمرو، وهو المعروف بـ"المعنق ليموت"، وهذا سيأتي ذكره -إن شاء الله تعالى- في قصة "بئر مئونة"، لماذا سمي "المعنق ليموت".
- واستعرض الشباب، فأجاز منهم من جاز الخمس عشرة، منهم سمرة بن جندب، ورافع بن خديج، ورد الذين لم يكونوا يومئذٍ قد بلغوا الخمس عشرة، منهم أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر، وعرابة بن أوس وغيرهم.
- وهذا من الناحية الفقهية استفاد منه العلماء، كما ذكر الإمام مسلم في صحيحه، عن عمر بن عبد العزيز، أن هذا الحد بين سن البلوغ، وما قبله، فاعتبر جماهير أهل العلم أن من علامات البلوغ، بناءً على قصة أحد هذه، من علامات البلوغ، أن يبلغ الإنسان خمس عشرة سنةً، بدليل أنه -عليه الصلاة والسلام- أجاز بعض هؤلاء كعبد الله بن عمر، وكذلك البراء بن عازب، أجازهم يوم الخندق، وكانت سنة خمس، كما سيأتي، لكن في أحد كانوا أقل من خمس عشرة، فلم يجزهم -صلوات الله وسلامه عليه-.
- وفي هذا درسٌ آخر نستفيده، وهو: هذه النفوس المتوقدة، هذه النفوس والشباب الذين ملئت نفوسهم حبًّا لهذا الدين، ورغبةً في نصرته والدفاع عنه، هؤلاء الشباب تقدَّموا للجهاد، وهم يعلمون أن التبعة قد تكون قطع رقبةٍ، وإراقة دمٍّ، لكن كل ذلك يهون، إذا كان في سبيل الله، والدفاع عن دينه، وعن رسوله -صلى الله عليه وسلم-. فنسأل ما هذا الجو الذي رُبِّيت فيه هذه النفوس، حتى هان عليها الموت، وهو في مقتبل العمر، هؤلاء ليسوا كبارًا في السن يا إخوان، هؤلاء شبابٌ، يعني بالمصطلح المعاصر أمامهم عمرٌ، كان بإمكانه يقول: أستمتع بحياتي أولًا، وأنبسط وكذا وكذا، ثم بعدين أذهب إلى الجهاد، لا، هؤلاء بادروا، وهذا يكشف أن من وراء هذه النفوس الكبيرة، نفوسٌ أكبر ربَّتهم على حب الله، وحب رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والرغبة في الدفاع عن دينه.
- تعبأت قريش بثلاثة آلاف ثم جُعل على ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

- وتلاحظون أيها الإخوة والأخوات، أن خالدًا وعكرمة، كانا في أحدٍ من أعداء الله ورسوله، لم يمر إلا خمس سنواتٍ حتى أصبح هؤلاء في صفوف المسلمين، إذن لا نستغرب في ما يُحدثه الله -عزَّ وجلَّ- من إلقاء الإيمان في قلوب أناسٍ كانوا يومًا من الأيام أعداءً لهذا الدين، ولذلك تلاحظ التعبير القرآني عجيبًا جدًّا ومُدهشًا، قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [آل عمران: 167]، كان بعض المنافقين، كان عند بعضهم ميلٌ، وبعضهم للكفر أقرب منهم للإيمان، لم يقل الله -عزَّ وجلَّ- عنهم أنهم كفارٌ، فأسلم من أسلم، وتاب من تاب، وقضى الله -عزَّ وجلَّ- أمره في من حقت عليه الضلالة والعياذ بالله.
- أول من برز من المشركين، أبو عامر الفاسق، ثم ذكر قصته، لا تهم كثيرًا هنا، لكن كان شعار الصحابة -رضي الله عنهم- في غزوة أحد "أَمِتْ، أَمِتْ"، وهذا ما يُعرف اليوم بالشفرة العسكرية، بين الجيش الواحد، يكون بينهم شفراتٌ، حتى لا يعلم بهم العدو، والظاهر من كتب السير أن هذه اللفظة، أو أن هذه الجملة "أَمِتْ، أَمِتْ" هذه كانت مستعملةً في عدة غزواتٍ، كما يُقال شفرةٌ، ما فائدتها؟ أنا مثلًا قد أسير في الليل، وقد يدخل علينا إنسانٌ بالغلط، ما نعرفه، فأقول له: ما الشعار؟ إن أعطاني الشعار عرفت أنه من المسلمين فتركته، إن لم يعطني الشعار، عرفت أنه دسيسةٌ أو عينٌ، أو جاسوسٌ يريد أن يتجسس، وهنا يُمسك به المسلمون.
- من الذين أبلوا بلاءً حسنًا في هذه الغزوة: أبو دجانة، سماك بن خرشة -رضي الله عنه-، وحمزة عم النبي -عليه الصلاة والسلام-، وعليٌّ بن أبي طالب، وجماعة من الأنصار، منهم أنس بن النضر، عندكم مكتوبٌ في الكتاب النضر بن أنس، وهو: أنس بن النضر، يصحح يعني، وسعد بن الربيع -رضي الله عنهم أجمعين-.
- كانت الدولة، يعني دولان المعركة في أول النهار المسلمين على الكفار، فانهزموا راجعين، حتى وصلوا إلى نسائهم، لاحظوا الآن من أين أُتي المسلمون، من أين جاء الخلل، في أول النهار، يوم السبت، كانت الغلبة للمسلمين، فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير، الذين كانوا على جبل الرماة، قالوا: يا قوم، الغنيمة، الغنيمة. هنا يأتي التعقيب القرآني، ليصحح الخطأ ويقول: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]، عبد الله بن جبير ذكَّرهم: يا قوم، احفظوا وصية رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قالوا: خلاص، انفضَّ القتال، انتهت المعركة، قال: لم يأذن لنا بعد -عليه الصلاة والسلام- بالنزول، اصبروا، اصبروا، فما سمعوا هذا الكلام، ظنًّا منهم، ليس تعمُّدًا للمعصية، أبدًا، لكن ظنًّا منهم أن المعركة انتهت، حتى ابن كثير يقول: "فظنوا أن ليس للمشركين رجعةٌ، وأنهم لا تقوم لهم قائمةٌ بعد ذلك، فذهبوا في طلب الغنيمة".



- هنا أتت العبقرية الخالدية، من خالد بن الوليد، في ذلك الوقت، فلما رأى الجبل هذا الذي كان حصنًا قويًّا للمسلمين، وترسًا يحول دون الكر على المسلمين، رأى هذه الثغرة قد شغرت، كرَّ ورجع إليها، وهنا يعني يختلف المعاصرون في تفسير الكرَّة، هل جاءت، يعني ولنعد قليلًا إلى الصورة التي ذكرناها قبل قليل، الصورة الآن السهم الأزرق الذي سيظهر الآن، لاحظوا

الآن كثير من أهل العلم يقول، حتى بعض المعاصرين، يقولون: خالد رجع من وراء جبل الرماة، ومنهم من يقول: لا، إن خالدًا رجع من خلف جبل أُحد، ما الذي جعله يرجِّح هذا؟ يقول: لو كانت كرَّة خالد؛ لأن الجبل هذا صغيرٌ، لو حصل كرَّةٌ، لرآه المسلمون، واستدركوا الأمر بسرعةٍ، لكن خالد من عبقريته، لم يأت من على الجبل الصغير، ولكن جاء من خلف الجبل، من الجهة الأخرى؛ حتى الجبل يغطيهم، ولو ثار نقع الغبار لم يره أحدٌ، فجاء من خلف جبل أُحد من هناك، ويقدِّره بعض المعاصرين بقرابة ساعةٍ إلا ربع، أو ساعةٍ تقريبًا، الكرَّة هذه، احتاج خالد أن يلتف على جبل أُحد من الخلف، لماذا؟ يقول: لو كانت الكرَّة كما في الصورة السابقة باللون الأزرق هذا، لو كانت الكرَّة بهذه الصورة يقول: لكُشف هذا للمسلمين، ولاستطاعوا أن يدفعوهم مباشرةً، وخاصة وقد أُثخنوا في أول النهار.



- فعلى كل حالٍ، أنا أذكر هذا؛ لأن المستقر في أذهان كثيرٍ من المعاصرين أن الكرَّة بهذه الصورة التي ترون لونها، السهم هذا، الصورة الثانية ممكن تكون أيضًا أدق، بهذا الشكل أيضًا، لاحظوا، لاحظوا هذه أقرب للواقع، يقولون: إن خالدًا جاء مع الخط الأخضر هذا، الممتد إلى نهاية الصورة، كرَّ خالد من هذا الجبل، فيقول بعض الذين يخالفون هذا القول: إن خالدًا لم يأت من هذه الجهة، إنما أتى من الجهة التي خلف المدينة، ثم كرَّ عليهم من الخلف من هناك؛ لأن المشركين لما ولوا الدُّبر في ألو النهار، ذهبوا إلى جهة مكة، ولما رأوا الجبل مُنكشفًا، ما يمكن يرجعون من نفس الطريق، وإلا لخُذلوا مباشرةً، أو على الأقل وجدوا مقاومةً شرسةً، لكن لم يحصل هذا، بل جاءوا من الخلف، وعلى كل حالٍ أنا أضع هذا الأمر؛ لأجل أن تتأملوه وتنظروا فيه.
- قال -رحمه الله-: فلما رأى ذلك أصحاب عبد الله بن جبير، قال: الغنيمة إلى آخره، فذهبوا في طلب الغنيمة، وكرَّ الفرسان من المشركين، فوجدوا تلك الفُرْجة قد خلت من الرماة، فجاوزوها، وتمكنوا، وأقبل آخرهم، فكان ما أراد الله كونه، فاستشهد من أكرمهم الله بالشهادة من المؤمنين، فقُتل جماعةٌ من أفاضل الصحابة، وتولى أكثرهم، وخلص المشركون، لاحظوا أثر هذه المعصية الآن، التي حصلتْ من الرماة، حصل المشركون إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فجُرح في وجهه الكريم، فكُسرت الرباعية هذه، اليمنى والسفلى بحجرٍ، وهُشمت البيضة على رأسه الشريفة -عليه الصلاة والسلام-، ورشقه المشركون بالحجارة، حتى وقع على شقه -عليه الصلاة والسلام-، في حفرةٍ من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق حفرها يكيد بها المسلمين.
- فأخذه عليٌّ بيده، واحتضنه طلحة بين عبيد الله -رضي الله عنه-، وكان الذي قد تولى أذى النبي -عليه الصلاة والسلام- هو عمرو بن قمأة، وعتبة بن أبي وقاص، ويقال: إن عبد الله بن شهاب، جد الإمام الزهري المشهور، هو الذي شجَّ النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقُتل مصعب بن عمير بين يديه -عليه الصلاة والسلام-، فدفع النبي -عليه الصلاة والسلام- اللواء إلى عليّ بن أبي طالب، ونشبت حلقتان من حِلق المِغفر الذي كان في وجهه -صلى الله عليه وسلم-، فانتزعهما أبو عبيدة بثنيتيه، فانكسرت الثنيتان، انكسرت، فكان في أبي عبيدة -رضي

الله عنه- كما نقول نحن "أثرم"، كان إذا أراد أن ينطق السين، ينطقها ثاءً، فكانت مُستملحةً فيه -رضي الله عنه-؛ لأن سببها نزع الحلقتين من وجهه الشريف -صلى الله عليه وسلم-.

- وجاء مالك بن سِنان، والد أبي سعيد الخدري الصحابي الجليل، فلما رأى الدم ينزل من وجهه الشريف -صلى الله عليه وسلم-، امتصه، من أجل أن يسكّنه، وأدرك المشركون النبي -عليه الصلاة والسلام-، يعني حاولوا أن يخلصوا إليه، لم يكن بينه وبينهم إلا مسافة قريبة، وبقي بينه -عليه الصلاة والسلام- وبين المشركين سبعة، وقيل عشرة، كلهم من الأنصار، إلا واحدًا وهو طلحة بن عبيد الله، فتقدَّم الأنصار ليدافعوا عن النبي -عليه الصلاة والسلام-، واحدًا واحدًا، هذا يُقتل، ثم الثاني، ثم الثالث؛ لأن المشركين كرُّوا كرَّةً شديدةً، فلما رأى طلحة بن عُبيد الله أن الأمر وأن الخطر أحدق برسول الله -عليه الصلاة والسلام-، قوَّس عليه هكذا، يعني الرسول هكذا، هو أعطى ظهره للمشركين وقوَّس عليه هكذا؛ حتى لا يصيبه شيءٌ -رضي الله عنه وأرضاه-.
- فأصبح ظهره من كثرة السهام كأنما هو قنفذٌ، فقال -عليه الصلاة والسلام-: **«أوجب طلحة»**، يعني وجبت له الجنة، فكان بعض الصحابة يقول: من شاء أن ينظر إلى رجلٍ من أهل الجنة يمشي على الأرض، فلينظر إلى طلحة -رضي الله عنه وأرضاه-.
- هذا الفداء من الصحابة -رضي الله عنهم- لم يكن فقط، يعني كان الصحابة -رضي الله عنهم- عظيمي الدفاع عن الدين، عظيمي الدفاع عن النبي -عليه الصلاة والسلام-، صدقوا ما عاهدوا الله عليه حقًّا، أقسموا أن ينصروه، وأن يدافعوا عنه -صلوات الله وسلامه عليه-.
- وكانوا حينما يقولون: "فديناك بآبائنا وأمهاتنا وأنفسنا" كانوا صادقين قولًا وعملًا، وظهرت آثار بطولاتهم -رضي الله عنهم وأرضاهم- في غزوة أُحد، وكان ممن وقف بين يديه -عليه الصلاة والسلام- سعد بن أبي وقاص، وكان يذود عن النبي -عليه الصلاة والسلام- بنبله، وكان راميًا حاذقًا، فقال له -عليه الصلاة والسلام-: **«ارمِ، فداك أبي وأمي»**، وممن أصيب من الصحابة قتادة بن النعمان الظفري -رضي الله عنه-، أصيبت يومئذٍ عينه، فسقطت، فجاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- وعينه بيده، فردَّها النبي -عليه الصلاة والسلام- على موضعها، فرجعت أحسن من الأولى، وهو الذي كان يقول، كان ابنه يتمدح ويقول:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه عينه ... فرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الردِّ

- المهم، أن هذه المشاهد، رغم ما حصل فيها، من أثرٍ عظيمٍ، نفسيٍّ وجسديٍّ على الصحابة، لكن ظهر فيها مناقب أخرى كثيرةٌ للصحابة -رضي الله عنهم-، أثبتت أنهم قوم صدقٍ، وأنهم -رضي الله عنهم- صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقعت نقاط ضعف، وقعت أخطاء، صححها القرآن الكريم، كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- في كلام الحافظ.
- يقول -رحمه الله-: **"وصرخ الشيطان -لعنه الله- بأعلى صوته: إن محمدًا قد قُتل، قال: ووقع ذلك في قلوب كثيرٍ من المسلمين، وتولى أكثرهم، وكان أمر الله".**
- يقول ابن القيم -رحمه الله- في "زاد المعاد": "إن هذه القصة، كانت بمثابة التمهيد لوفاته -عليه الصلاة والسلام-"، كيف؟ أراد الله -عزَّ وجلَّ- أن يلقّن الصحابة -رضي الله عنهم- درسًا عظيمًا في أن القضية الآن

متعلقةٌ بدينٍ، وليست متعلقةً بشخصه -عليه الصلاة والسلام-، ولذلك قال الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144] يعني مات بدون قتالٍ، أو قُتل في المعارك، ﴿أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: 144]، أنتم تعبدون الرسول؟ أو تعبدون الله؟ أنتم اتبعتم الدين لمتعلقٍ بشخصٍ معينٍ؟ أم متعبدون بالدين لله -عزَّ وجلَّ-؟ ولهذا أبو بكر -رضي الله عنه- أخذ هذا المعنى يوم مات النبي -عليه الصلاة والسلام-، وقال: "من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت". وهذا منهجٌ عظيمٌ لجميع الدعاة، وجميع المسلمين، أن لا يعلّقوا قلوبهم بشخصٍ مهما كان، لا عالمٍ، ولا قائدٍ، ولا مجاهدٍ، ولا رئيس دولةٍ صالحٍ، ولا غير ذلك، هؤلاء أسبابٌ لاشك لنصرة الدين لكن السبب الأعظم، والمؤيد الأعظم، هو ربنا -عزَّ وجلَّ-.

- فيقول ابن القيم، وهذا ملحظٌ جميلٌ: أن فيه تربيةٌ مبكرةٌ للصحابة -رضي الله عنهم-، انتبهوا، سيأتي يومٌ من الأيام فيموت النبي -عليه الصلاة والسلام-، ماذا ستصنعون؟ تتركون الدين، ولهذا قال أنس بن النضر -رضي الله عنه- حينما مر بقومٍ من المسلمين قد ألقوا بأيديهم، يعني خارت قواهم بعدما سمعوا هذه الصرخة الشيطانية، قال: ما تنتظرون؟ قالوا: قُتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: ما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما ماتوا عليه، ثم استقبل الناس، وشجَّعهم بهذه الكلمة، ولقي سعد بن معاذ، قال: يا سعد، والله وأنس قد فاته القتال ببدرٍ، قال: والله إني لأجد ريح الجنة من قِبَل أحد، فقاتل حتى قُتل -رضي الله عنه-، ووجدت به سبعون ضربةً.
- وعبد الرحمن بن عوف جُرح، وغيرهم كذلك من الصحابة -رضي الله عنهم-، وأقبل النبي -عليه الصلاة والسلام- على الصحابة بعدما سلَّمه الله من سِهام المشركين، فعرفه أول من عرفه كعبٌ بن مالك، بعدما رآه، وهو تحت المِغفر؛ لأن المِغفر يغطي معالم الوجه، لكنْ كعبٌ بن مالك عرفه بمشيته، عرفه بجسده الشريف -عليه الصلاة والسلام-، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا، هذا رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأشار إليه النبي -صلى الله عليه وسلم- أن اسكتْ، فاجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معهم إلى الشِعب الذي نزل فيه، فيهم أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، والحارث بن الصمة الأنصاري، فلما أسندوا إلى الجبل، يعني اتجهوا إلى الجبل، جاء أُبيٌّ بن خلف هذا الشقي، على جوادٍ يُقال له العود، فزعم هذا الخبيث أنه يقتل النبي -عليه الصلاة والسلام-، فلما اقترب تناول النبي -عليه الصلاة والسلام- الحربة من يدي الحارث بن الصمة، فطعنه بها، فجعلها في الترقوة، فَكَرَّ هذا الرجل منهزمًا، فقال له المشركون: ما بك من بأسٍ، قال: والله لكأن ما بي بأهل ذي المجاز، الذين هم في أحد أسواق الجاهلية، إذا اجتمعوا، يقول: والله لو أصاب أهل ذي المجاز ما أصابني، والله لماتوا أجمعين، والله إنه لقاتلي، والله إنه لقاتلي، ولم يزل حتى مات في طريقه إلى مكة، قبَّحه الله.
- المهم، لما الدم لم يستمسك من وجهه الشريف -صلوات الله وسلامه عليه- بعد نزع الحلقتين، جاء عليٌّ -رضي الله عنه-، وهو ابن عمه، وزوج ابنته، بماءٍ ليغسل عنه الدم، لكن هذا الماء كان آجنًا يعني متغيّرًا، فردَّه -عليه الصلاة والسلام-، ولم يأخذه، وأراد -عليه الصلاة والسلام- أن يصعد على صخرةٍ، لكن لم يستطع بأبي هو وأمي للتعب الذي أصابه، ولأنه كان ظاهرَ بين درعين، ثوبين من حديدٍ، هذه لاشك أنها تُثقل جسد المجاهد، فجلس تحت طلحة -رضي الله عنه-، وحانت الصلاة، يعني صعد على كتف طلحة -عليه رضوان

الله-، ثم حانت الصلاة، فصلى جالسًا، ثم مال المشركون إلى رحالهم، واستقبلوا طريق مكة منصرفين، وكان هذا كله يوم السبت.

- المسلمون حصل فيهم جراحاتٌ عظيمةٌ، قُتل منهم سبعون، ولهذا قال الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ في أحد يعني ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ في بدرٍ، أنتم قتلتم في بدرٍ سبعين، وجرحتم سبعين، هذه المصيبة لما أصابتكم ﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ ، تساءلتم من أين أصبنا بهذه الهزيمة؟ قال الله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: 165]، وهذه تربيةٌ قرآنيةٌ للصحابة، وهي منقبةٌ لهم، حيث نقلوا هذا الخلل الذي وقع منهم -رضي الله عنهم-، ونقلوا تربية الله -عزَّ وجلَّ- لهم، فلا مطعن، لا للرافضة ولا لغيرهم من أهل البدع، الذين يطعنون في الصحابة -رضي الله عنهم-، بأمثال هذه المواقف، وسيأتي -إن شاء الله- تعليقٌ بعد قليلٍ على مسألة فرار بعض الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم-.
- قال -رحمه الله-: واستشهد يومئذٍ نحو سبعين، منهم حمزة، الذي قتله وحشي، ووحشي هذا أراد أن يُكفِّر، أسلم بعد ذلك -رضي الله عنه- فأراد أن يُكفِّر عن خطئه، فقتل مسيلمة الكذاب في اليمامة، يقول: لعلي ألقى هذا بهذا.
- يقول: ممن قُتل أيضًا: عبد الله بن جحش، حليف بني أمية، وكذلك مصعب بن عمير، وعثمان بن عثمان، ويسمى شمَّاس المخزومي؛ لأنه حسن الوجه، فقُتل أربعةٌ من المهاجرين، والبقية، الذين هم ستةٌ وستون كلهم من الأنصار، فدفنوا في دمائهم وكلومهم، ولم يصلِّ عليهم يومئذٍ، وهذه من الأحكام الفقهية المستفادة في القصة، وهو أن الشهيد شهيد المعركة، يُدفن بثيابه، ولا يُصلى عليه.
- فإن قلت: ألم يصلي النبي -عليه الصلاة والسلام- عليهم في آخر حياته؟
- فيُقال: بلى، ثبت هذا في صحيح مسلم، لكن صلاته في آخر حياته، ليست صلاة جنازةٍ؛ لأن صلاة الجنازة تكون بعد وفاة الإنسان، وإنما هذه كما ثبت في مسند أحمد وغيره، هي صلاة رحمةٍ، أو دعاءً لهم، لا علاقة لها بصلاة الجنازة، هذا هو الثابت في الصحيح. جاء في بعض الروايات خارج الصحيح، أنه صلى عليهم، ولكنها شاذةٌ، وهذا اختيار جمع من المحققين كابن كثير، وابن القيم، وشيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز -رحمة الله عليهم أجمعين-.
- هنا يقول ابن كثير، وهذا لاحظوا من إنصاف أهل السنة -رضي الله عنهم-، لا يكتمون، ولا يكذبون، ولا يطعنون، خلافًا لبعض أهل البدع قبَّحهم الله، الذين يطعنون في الصحابة -رضي الله عنهم- لوجود أخطاءٍ وقعت من بعضهم، فيطعنون فيهم جميعًا، أو لا يغفرون لهم.
- يقول -رحمه الله-: وفرَّ يومئذٍ من المسلمين جماعة من الأعيان، منهم عثمان بن عفان، لاحظ ابن كثير هنا، وقد نصَّ الله -عزَّ وجلَّ- على العفو عنهم، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: 155] ما الذي بعدها؟ ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 155]، ولهذا لما جاء بعض الطاعنين في خلافته كما في صحيح البخاري، إلى ابن عمر -رضي الله عنه-، قالوا: ألم يفر عثمان؟ قال: بلى، لكن ألم تسمعوا قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ، قالوا: لم يبايع في بدرٍ، قال: أشهد، يعني لم يحضر ابن عمر، لكن يشهد بما علم، أن النبي -عليه

الصلاة والسلام- أرسل عثمان إلى أهل مكة لمكانته فيهم، فلما جاءت البيعة، قال، عفوًا بيعة الرضوان، أرسل عثمان إلى أهل مكة، فقال: «هذه يد عثمان» -رضي الله عنه-، فهذه صارت منقبةً له، ولكن من في قلبه مرضٌ، يريد أن يقلب بعض المواقف الحسنة إلى سيئةٍ، ومن أراد أن يطعن أو يتكلم في أحد، سواءٌ كان من الصحابة أو غيرهم، الصحابة أمرهم عظيمٌ؛ لأن الله -عزَّ وجلَّ- زكَّاهم وترضى عنهم، ووضعهم يختلف؛ لأنهم حملة الشريعة، فالطعن فيهم طاعنٌ في ما نقلوه لنا من الشريعة، لكن عمومًا، من أراد أن يتكلم في أحدٍ فليتكلم بعلمٍ وعدلٍ، وأن يجمع جميع النصوص، أو جميع المواقف، وجميع الأقوال حتى يحكم عليه بعلمٍ وعدلٍ.

- قال: وقُتل يومئذٍ من المشركين اثنان وعشرون، وقد ذكر الله -عزَّ وجلَّ- هذه الوقعة في سورة آل عمران، حيث يقول: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 121] الآيات، وهي آية مائةٍ وواحدٍ وعشرين وما بعدها.
- وهنا أنصح إخواني وأخواتي أن يقرؤوا هذه السيرة من خلال سورة آل عمران، ومن أحسن من تكلم عليها، وبسط القول فيها: الإمام ابن القيم -رحمه الله- في "زاد المعاد"، في الجزء الثالث صفحة مائتين وإحدى عشر، وما بعدها، ذكر الفوائد المستنبطة من هذه القصة، ذكر فوائد فقهيةً، ذكر فوائد مقاصديةً، في السياسة الشرعية، في الجهاد، في الأمور التربوية، ومن أجمل وأروع التعليقات عنده، تعليقه على قول الله -عزَّ وجلَّ-: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: 154].
- وهنا السؤال الكبير: هل كانت أُحد هزيمةً محضةً؟
- إذا أردنا أن ننصف، فإننا نستطيع أن نقول: إن أُحدًا لم تكن هزيمةً محضةً، بل كان فيها هزيمةٌ وكان فيها نصرٌ، أما الهزيمة فبالمقياس العسكري، نعم صارت هزيمةً، باعتبار مآل الغزوة، وأنها انتهت بهذه المأساة التي حصلت، أما النصر الذي وقع فيها، فهو نصرٌ معنويٌّ، نصرٌ تربويٌّ، نصرٌ إيمانيٌّ، حيث جاء القرآن ليعالج ما وقع فيه الصحابة -رضي الله عنهم- من أخطاءٍ، وفيه تأكيدٌ على قضيةٍ مهمةٍ جدًّا أيها الإخوة والأخوات ننتبه لها، وهو أنه لا تستقيم نصرة الدين، وفي القلوب شيءٌ لغير الله -عزَّ وجلَّ-، الله تعالى عاتب الصحابة أو بعضهم، قال: ﴿مِنكُم﴾ لم يكونوا كلهم ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: 152]، ذكر الله -عزَّ وجلَّ- في أثناء الحديث عن غزوة أُحد، التحذير من أكل الربا؛ لأن من حارب الله بأكل الربا، وحارب رسوله -عليه الصلاة والسلام- بأكل الربا، فلا ينتظر أن ينتصر على أعدائه الذين يفوقونه قوةً وعددًا، وفي هذا تنبيهٌ على أثر المعصية في خذلان الأمة.
- إذن، الدروس التربوية العظيمة، التي ربَّى الله -عزَّ وجلَّ- بها الصحابة في هذه الغزوة، من العتاب، من التنبيه على الأخطاء، من من من، هذه في الواقع نصرٌ معنويٌّ، ونصرٌ تربويٌّ إيمانيٌّ. كيف عرفنا أنه نصرٌ؟ هل هذا كلامٌ عاطفيٌّ؟ الجواب: لا، بدليل أنهم لم يُهزموا بعد هذه الغزوة إلى أن مات النبي -عليه الصلاة والسلام-، في أي غزوةٍ، أليس هذا نصرًا؟ تصوَّر أنت الآن لو أن الغزوة في أُحد حصل فيها النصر عسكريًّا ومعنويًّا، حصل فيها النصر مع وجود هذه الأخطاء التي وقعت من الصحابة، كيف سيكتشف الصحابة -رضوان الله عليهم- هذه الأخطاء في الغزوات القادمة؟ لا يستطيعون أن يكتشفوها، ولهذا كانت أُحد من هذه الزاوية نصرًا، ومن قرأ الآيات بتدبرٍ وتأملٍ، والله سيجد في ذلك معانيَ عظيمةً تحلِّق روحه فيها مع الآيات وكأنما عاشها، وينظر:

يا أيها الذين آمنوا كذا وكذا وكذا، ونجد هناك تركيزٌ عظيمٌ على إصلاح ما في القلوب، على قضية التقوى، على قضية كظم الغيظ، على قضية التوبة من الذنوب، ولهذا الله قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 146، 147]؛ لأن الإنسان إذا أسرف على نفسه، أو أذنب فإنما هو يفتح جبهةً مع نفسه، مع الشيطان، فكيف سينتصر هنا، وهو لم ينتصر على نفسه؟.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

